

أثر معاني القرآن للفرء في الكشّاف للزمخشريّ - دراسة في المستوى الصوتي

توطئة:

ينحصر الأثر الصوتي لمعاني الفرء في الكشّاف للزمخشريّ في دراسة الصوت اللغوي داخل البنية ، أي دراسة التشكيل الصوتي من دون أن يتأثر أو يتغير المعنى ، وهو ما يسميه علماء الصوت المحدثون بـ (علم وظائف الأصوات) ، ويرجع السبب في ذلك إلى ارتباط التشكيل الصوتي بالقراءات القرآنية التي هي محط عناية الفرء واهتمامه . وكان من أبرز تلك الآثار الصوتية الإبدال والقلب والهمز والتسهيل والإتباع والإدغام والإعلال ويمكننا أن نتلمس ذلك بوضوح من الأمثلة الآتية :

١. الإبدال
في قوله تعالى (فَإِنَّ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا) (من سورة البقرة : ٢٤) ، ذكر الزّمخشريّ : أنّ " لن " عند الفرء أصلها " لا " ، أبدلت ألفها نونا ' .
ويبدو لي أن تفسير الإبدال في هذا الموضع مرتبط بالمعنى ، إذ إن " لا " تفيد نفي المستقبل ، و " لن " تفيد نفي المستقبل أيضاً ، فهما أختان ، غير أن " لن " تفيد نفي المستقبل بنوع من التوكيد والتشديد ، ولأن سياق الآية يتطلب مثل هذا التوكيد والتشديد جاءت " لن " مؤدية ذلك المعنى . أما من الناحية الصوتية فلا مسوغ لهذا الإبدال ، إذ لا علاقة في المخرج أو الصفة بين الألف والنون ، ولهذا يمكن القول إن هذا النوع من الإبدال يدخل في باب الاشتقاق الأكبر ، إذ لم يشترط علماء اللغة فيه وجود التناسب في المخارج بين الأحرف المختلفة بل توسعوا في هذا الاشتقاق

ومفهومه ليشمل إبدال حرف من آخر مطلقاً ، وافقه في المخرج أو لم يوافقه بشرط حصول التناسب المعنوي بين اللفظين ^٢ .

٢ . الهمز والتسهيل :

أ . في قوله تعالى (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ) (يونس ١٦) ، وجّه الفراء قراءة الحسن "ولا أدراكم به" ^٣ بالهمز ، فقال : ((وقد ذكر عن الحسن أنه قال "ولا أدراكم به" فإن يكن فيها لغة سوى دريت و أدريت فلعل الحسن ذهب إليها ، وأما أن تصلح من دريت أو أدريت فلا ؛ لأن الياء والواو إذا انفتح ما قبلهما وسكنتا و صحتا ولم تتقلبا إلى ألف، مثل قضيت و دعوت . ولعل الحسن ذهب إلى طبيعته و فصاحته فهمزها ، لأنها تضارع درأت الحدّ وشبهه . وربما غلطت العرب في الحرف إذا ضارعه آخر من الهمز فيهمزون غير المهموز ، سمعت امرأة من طيِّئ تقول : رثأت زوجي بأبيات ، ويقولون : لبأت بالحج وحلأت السوق فيغلطون ، لأن حلأت قد يقال في دفع العطاش من الإبل ، ولبأت ذهب إلى اللبا الذي يؤكل ، ورثأت زوجي ذهبت الى رثيئة اللبن ، وذلك إذا حلبت الحليب على الرائب ^٤)) .

وانتفع الزمخشري بما ذكره الفراء في تخريج قراءة الحسن " ولا أدراكم به " بالهمز ، فقال : ((" ولا أدراكم به " ولا أعلمكم به على لساني ، وقرأ الحسن : " و لا أدراكم به " على لغة من يقول : أعطاته و أرضاته ، في معنى : أعطيته و أرضيته ،

(٢) ينظر : الوجيز في فقه اللغة ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٣) قرأ الجمهور : " ولا أدراكم به " وقرأ قنبل و البري : " و لأدراكم به " بلام دخلت على فعل مثبت

معطوف على منفي ، والمعنى : ولأعلمكم به . و قرأ ابن العباس و ابن سيرين والحسن وأبو رجاء :

و لا أدراكم به " . وقرأ شهر بن حوشب و الأعمش : " ولا أنذرتكم به " بالنون والذال من الإنذار .

ينظر : البحر المحيط . ١٣٢ / ٥ - ١٣٣ .

(٤) معاني القرآن : ١ / ٤٥٩ .

وتعضده قراءة ابن عباس : " ولا أنذرتكم به " ، ورواه الفراء : " ولا أدراؤتكم به " بالهمز ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن تقلب الألف همزة ، كما قيل : لبأت بالحج ، و رثأت الميت وحلأت السويق ، وذلك لأن الألف و الهمزة من واد واحد ، ألا ترى أن الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة ، والثاني : أن يكون من درأته إذا دفعته ، و أدراؤه ، إذا جعلته دارئا ، والمعنى : ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤونني بالجدال وتكذبونني))^٥ .

يتضح من ما تقدم أن ما عدّه الفراء غلطا في همز الحرف غير المهموز للمشابهة - وهو ما يطلق عليه (الحمل على التوهم) - قد اعتدّ به الزمخشري في تسويغ قراءة الحسن المذكورة آنفا ، وصرّح بنسبته إلى الفراء .

ب - في قوله تعالى : (أفترى على الله كذبا أم به جنّة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) (سبأ : ٨)

علل الفراء اختفاء الهمزة من " أفترى " عند اجتماعها مع همزة الاستفهام بأنها خفيفة زائدة تذهب في اتصال الكلام ، فقال : ((هذه الألف استفهام ، فهي مقطوعة في القطع^٦ والوصل ، لأنها ألفت الاستفهام ذهبت الألف التي بعدها ، لأنها خفيفة زائدة تذهب في اتصال الكلام ... ولا يجوز أن تكسر الألف هاهنا لأن الاستفهام يذهب ، فإن قلت : هلا إذا اجتمعت ألفان طوّلت كما قال تعالى : " الذّاكرين^٧ " " الآن^٨ " ؟ ، قلت : إنما طوّلت الألف في " الآن " وشبهه لأن ألفها

(٥) الكشاف ٢ / ٣٣٥ .

(٦) القطع هنا بمعنى الوقف . ينظر : تاج العروس (قطع) .

(٧) سورة الأنعام : ١٤٣ .

(٨) سورة يونس : ٩١ .

كانت مفتوحة ، فلو أذهبتها لم تجد بين الاستفهام والخبر فرقا ، فجعل تطويل الألف فرقا بين الاستفهام والخبر ، وقوله تعالى " أفترى " كانت ألفها مكسورة وألف الاستفهام مفتوحة فافترقا ، ولم يحتاجا إلى تطويل الألف))^٩ .

انتفع الزمخشري برأي الفراء المذكور آنفا فقال في توجيه سقوط همزة الوصل من " أفترى " عند اجتماعها وهمزة الاستفهام في الآية نفسها : ((فإن قلت : لم أسقطت الهمزة في قوله " أفترى " دون قوله تعالى " السحر " ، وكلتاهما همزة وصل ؟ قلت : القياس الطرح ، ولكن أمرا اضطرهم إلى ترك إسقاطها في أمر " السحر " وهو خوف التباس الاستفهام بالخبر ، لكون همزة الوصل مفتوحة كهمزة الاستفهام))^{١١} .

يبدو جليا انثثار الزمخشري أبا زكريا الفراء في التوجيه فضلا عن اعتماده أسلوب المناصرة المتخيلة الذي انتهجه الفراء نفسه بقوله فإن قلت : قلت .

٣ - القلب^{١٢} :

في قوله تعالى (إِمَّا مَن هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ) (الصافات : ١٦٣) ، أجاز الفراء في قراءة الحسن " صال^{١٣} " بالرفع ، أن تكون لغة مقلوبة ، أو أن تكون " صالوا " جمعا ، فقال : ((وقرأ الحسن "إلا من هو صال الجحيم " رفع اللام فيما

^٩ معاني القرآن ٢ / ٣٥٤ .

^{١٠} سورة يونس / ٨١ .

^{١١} الكشاف ٣ / ٥٧٠ .

^{١٢} القلب : هو تقديم حروف الكلمة على بعض ، ويسمى قلباً مكانياً ، ينظر : الخصائص ٢ / ٨٤ ، والمبدع في التصريف ٢٣٩ . ٢٤٠ ' وهمع الهوامع ٦ / ٢٧٦ . ٢٧٧ ، ودراسات في فقه اللغة ١٠٣ .

^{١٣} قرأ الجمهور " صال " بالكسر ، وقرأ الحسن وابن أبي عبيدة " صالوا " بالرفع ،

ينظر البحر المحيط ٧ / ٣٧٩ .

ذكروا ، فان كان أراد واحدا فليس بجائر ؛ لأنك لا تقول هذا قاضٍ و لا رامٌ ؛ وان يكن عرف فيها لغة مقلوبة مثل : عاث و عثا فهو صواب . قالت العرب : جُرِفٌ هارٌ و هارٍ ، وهو شاكٌ السلاح و شاكى السلاح ... وقد يكون أن نجعل " صالوا " جمعا ، كما تقول : من الرجال من هو أخوتك ، تذهب ب (هو) إلى الاسم المجهول ، وتخرج فعله على الجمع))^{١٤} .

والتنثر الزمخشري أبا زكريا الفراء فيما ذهب إليه من تخريج قراءة الحسن برفع " صالٌ " و زاد هو وجها آخر ، فقال : ((في قراءة الحسن ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يكون جمعا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هي و لام التعريف . والثاني : أن يكون أصله " صائل " على القلب ثم يقال " صالوا " في " صائل " كقولهم شاكٍ في شائك . الثالث : أن تحذف لام " صال " تخفيفا ويجري الإعراب على عينه))^{١٥} .

٤ - الإتياع^{١٦} :

في قوله تعالى (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ) (المؤمنون : ١١٠) ، ذكر الفراء ما ورد في " سخريا " من القراءات ، وذهب إلى أن ما كان من السخرة فهو مرفوع ، أي " سُخْرِيًّا " بضم السين ، وما كان من الهُزُو فهو مكسور ، أي " سِخْرِيًّا " بكسر السين ، فقال : ((وقولهم : سِخْرِيًّا و " سُخْرِيًّا " ؛ وقد قرئ بهما جميعا^{١٧} . والضم أجود ، قال الذين كسروا ما كان من السخرة فهو مرفوع ، وما كان من الهُزُو فهو مكسور . وقال الكسائي : سمعت العرب تقول :

^{١٤} معاني القرآن ٢ / ٣٩٤ .

^{١٥} الكشف ٤ / ٦٥ . ٦٦ .

^{١٦} يقوم هذا الإتياع على تناسق الحركات في الكلمة الواحدة لتحقيق الانسجام ، ينظر : اللهجات العربية في التراث ١ / ٢٧٣ .

^{١٧} قرأ بالضم " سُخْرِيًّا " نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف والأعمش ، وبالكسر قرأ الباقر ، ينظر : الإتياع ٤٠٦ .

بَحْرٌ لُجِّيٌّ وَلِجِّيٌّ ، وَدُرِّيٌّ وَدِرِّيٌّ مَنْسُوبٌ إِلَى الدَّرِّ ، وَالكُرْسِيُّ وَالكَرْسِيُّ ، وَهُوَ كَثِيرٌ ((١٨ .

وانتفع الزمخشري بما أورده الفراء في توجيه الآية نفسها ، فقال : ((" السُّخْرِيُّ" بالضم والكسر . مصدر سخر كالسخر ، إلا أنّ في ياء النسب زيادة قوة في الفعل ، كما قيل الخصوصية في الخصوص . وعن الكسائي والفراء : أنّ المكسور من الهُزْوِ ، والمضموم من السخرة والعبودية)) ١٩ .
٥. الإدغام ٢٠ :

في قوله تعالى (لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَ لَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) (الكهف : ٣٨) ، ذكر الفراء أنّ معنى " لكنا " هو " لكن أنا " ، و قد حذفت الهمزة من " أنا " لكثرة الاستعمال ، فأدغمت النون من " لكنّ " مع النون من " أنا " ، و احتج له من كلام العرب الفصحاء ، فقال : ((معناه : لكن أنا هو الله ربّي ، ترك همزة الألف من " أنا " وكثر بها الكلام ، فأدغمت النون من " أنا " مع النون من " لكن " و أنشدني أبو ثروان :
وترميّني بالطرفِ أي أنتَ مذنبٌ وتقليبني لكن إياك لا أقلّي
يريد : لكن أنا إياك لا أقلّي ، فترك الهمز فصار كحرف الواحد)) ٢١ .
واقطفى الزمخشري أثر الفراء توجيهها واحتجاجا ، فقال في تفسير الآية نفسها : ((أصله لكن أنا ، فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون " لكن " فتلاقت النونان فكان

١٨ معاني القرآن ٢ / ٢٤٣ .

١٩ الكشاف ٣ / ٢٠٥ .

٢٠ ويعنى به هنا : تقريب صوت من صوت ، أو الإتيان بحرّين ساكن فمتحرك ، من مخرج واحد بلا فصل بينهما ، بحيث يرتفع اللسان وينحط بهما دفعة واحدة . ينظر : الخصائص ٢ / ١٣٩ ، ٣٣٥ ، وشذا العرف في فن الصرف ١٥٣ ، والأصوات اللغوية ١٨٢ .

٢١ معاني القرآن ٢ / ١٤٤ .

الإدغام . ونحوه قول القائل :
وترمينني بالطرف أي أنت مذنب
أي : لكن أنا لا أقلبك)) ٢٢ .

يتضح من تفسير الزمخشري ومن استشهاده بالشعر على حصول الإدغام
بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على النون ، أنه اقتفى أثر الفراء في تعليل هذه الظاهرة
الصوتية والاحتجاج عليها .
٦ . الإعلال ٢٣ :

أ . الإعلال بالقلب : في قوله تعالى : (قُلْ أُحِيَّ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ
فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) (الجن : ١) ، بعد أن ذكر الفراء إجماع القراء على "
أوحى " بالواو ، خرج قراءة جوية الأسيدي " أحي " بغير واو ، على أنه من باب
الإعلال بالقلب ، واحتج له من القرآن الكريم ، فقال : ((القراء مجتمعون على "
أوحى " وقرأها جوية الأسيدي : (قل أحي إلي) من أوحيت ، فهمز الواو لأنها
انضمت ، كما قال (تعالى) : وإذا الرسل أقتت)) ٢٤ .
وانتشر الزمخشري أبا زكريا الفراء في توجيه قراءة جوية الأسيدي " أحي " والاحتجاج
لها ، فقال : ((قرئ : " أحي " ، وأصله وُحي ، يُقال : أوحى إليه ، ووحى إليه ،
فقلبت الواو همزة ، كما قال : أَعَدَّ وَأَزَّنَّ ، " وإذا الرسل أقتت " ٢٥ وهو من القلب
المطلق جوازه في كل واو مضمومة)) ٢٦ .

٢٢ الكشاف ٢ / ٧٢٢ .

٢٣ الإعلال : هو التغيير الذي يصيب أحد أحرف العلة " الألف والواو والياء " ، بالقلب أو الحذف أو الإسكان
ينظر: شرح الشافية للرضي ٣ / ٦٦ . ٦٧ .

٢٤ معاني القرآن ٣ / ١٩٠ .

٢٥ المرسلات : ١١ .

٢٦ الكشاف ٤ / ٦٢٢ .

ب . الإعلال بالحذف :

في قوله تعالى (والليل إذ يسر) (الفجر / ٤) ، وجّه الفراء حذف الياء من "يسري" بأنه حذف روعي فيه سبق الياء المحذوفة بالكسرة التي نابت عنها ، فضلا عن مشاكلة رؤوس الآيات ، فقال : ((وقد قرأ الفراء "يسري" ^{٢٧} بإثبات الياء ، و "يسر" بحذفها ، وحذفها أحب إليّ لمشاكلتها رؤوس الآيات ، ولأن العرب قد تحذف الياء ، وتكتفي بكسر ما قبلها منها)) ^{٢٨} .
وانتفع الزمخشري بتوجيه الفراء المذكور آنفا ، فقال في توجيه الآية نفسها : ((وياء "يسري" تحذف في الدرج اكتفاء عنها بالكسرة ، وأما في الوقف فتحذف مع الكسر

٢٩

((

ينتضح فيما تقدم سير الزمخشري في ركاب أبي زكريا الفراء وإفادته منه في المواضع التي مرّ ذكرها ، وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدلّ على عظم قدر كتاب الفراء (معاني القرآن) من جهة ، وعلو شأن الفراء من جهة أخرى ، إذ كان فيه متذوقا أساليب التعبير ، مستكشفا أسرارها ، محيطا بلغات العرب ، فتعقّب الزمخشري مورداً آراءه الصوتية بالنص أو المعنى ، مصرّحا بنسبتها إليه أو غير مصرّح .

^{٢٧} قرأ الجمهور : "يسر" ، بحذف الياء وصلا ووقفا ، وابن كثير بإثباتها فيهما ، ونافع وابن عمر ، بحذفها في

الوقف ، ينظر : البحر المحيط ٨ / ٤٦٨ .

^{٢٨} معاني القرآن ٣ / ٢٦٠ .

^{٢٩} الكشاف ٤ / ٧٤٦ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١ . إتحاف فضلاء البشر في قراءات الأربعة عشر ، للشيخ شهاب الدين أحمد ابن محمد الدميّاطي البناء (ت ١١١٧ هـ) ، تحقيق الشيخ أنس مهرة ، دار الكتب العلمية ، ط ٣ ٢٠٠٦ م ، بيروت - لبنان .

٢ - الأصوات اللغوية ، للدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٤ ١٩٧١ م .

٣ - البحر المحيط ، لأبي حيان محمد بن يوسف النحوي الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ط ٢ ١٩٩٠ م .

٤ - تاج العروس من جواهر القاموس ، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) ، تحقيق مجموعة من الباحثين المعاصرين ، ط الكويت .

٥ - الخصائص ، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ١٩٩٠ م .

٦ - دراسات في فقه اللغة ، للدكتور صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، ط ٣ بيروت ١٩٦٨ م .

٧ - شذى العرف في فن الصرف ، للشيخ أحمد الحملوي ، ط ١٦ ، بيروت ١٩٦٥ م .

٨ - شرح الشافية ، لرضي الاستر ابادي ، تحقيق نور محمد وصاحبيه ، بيروت ١٩٧٥ م .

٩ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، دار الكتاب العربي ١٩٤٧ م .

١٠ - اللهجات العربية في التراث ، للدكتور أحمد علم الدين الجندي ، الهيئة المصرية العامة ١٩٦٥ م .

١١ - المبدع في التصريف ، لأبي حيان محمد بن يوسف النحوي الأندلسي ، تحقيق وشرح وتعليق الدكتور عبد الحميد السيد طلب ، مكتبة دار العروبة ، الكويت ١٩٨٠ م .

١٢ - معاني القرآن ، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ) ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي و آخرين ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٨٣ م .

١٣ - همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، لأبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق وشرح الدكتور عبد العال سالم مكرم ، دار البحوث العلمية ، الكويت .

١٤ - الوجيز في فقه اللغة ، للدكتور محمد الأنطاكي ، مكتبة الشهباء للطباعة و النشر والتوزيع ١٩٦٩ م .